

العودة المتخيلة - المستقبل

رجائي بُصيلة*

هل من مُتخيلٍ لـ "عودة مُتخيلة"؟**

الخيال، [هو] العالم الحقيقي والسرمدى وما هذه النبتة التي هي الكون سوى ظل باهت له. وليام بليك، القدس

حسناً، ها أنا هنا. الأمر مختلف، كل الاختلاف. ليس مثل أي شيء آخر، لكنني على الأرض حيث كنت. ماذا! هل خذلني خيالي؟ لا أشجار هنا. لقد اقتلعت كلها أو نُشرت جذوعها، حتى تلك التي تسلفتها وتلك التي سقطت عنها، وتلك التي أكلت منها الحامض والخلو من الثمر. لم تعد هنا، لكنني عدت، فهل وصلت من منفى الأول على جناحين غريبين؟

هل سأنضم إليها فيما بعد؟ لا يمكنني ذلك. حدوث هذا أمر يفوق التصور، كل تصوّر. الحال اليوم ليست كما كانت عليه. الخروف الذي لعبنا معه ونحن أطفال ذهب، وعليّ أن أصفّق للجزار، وأن أصفّق للوحوش التي أكلت الحمل إذا أردت أن أبقى هنا! وهل عليّ أن أنسى الجبال والتلال بروائحها الطيبة وأصواتها الفريدة كافة؟ وهل عليّ أن أنكر البحر بأمواجه حين تتلاعب أو تصخب، والبحر الآخر الذي سمّوه "الميت" مع أنه كان يتظاهر بالموت كأنه يمارض؟ سيتعين عليّ حتى أن أنسى لغتي، وأن ألقى بها بعيداً مع جميع الحقائق التي جمعتها وكل الإمكانيات التي تكنزها. إنهم يريدونني أن أنضم إليهم وأن أكون ما لست عليه - أن أسمي السرقة كسباً بعرق الجبين، أن أبارك قتل الطفل، وأن أقتلع عينيّ الضوء عند ولادته، وأن أحجب الشمس في وضح النهار، وأن أطمس بعتمة لم يأت أوانها بعد، الضوء الأصفر الذي يؤذن بأقول النهار. إنهم يريدونني أن أسمي قطع الأشجار زراعة، وتسميم الماء قبل شربه على أنه صحي للجسد والروح.

يقولون إن بيتي لم يعد موجوداً، ذاك البيت الذي كنت أنام فيه على الأرض، على

* كاتب وأكاديمي فلسطيني.

** مقالة خاصة بالمجلة بعنوان: *The Imagined Return*

ترجمة: صفاء كنج.

الفراس الدافئ الرقيق في الشتاء حين تهجع الرياح للنوم تارة، وتتصرف بصخب واضطراب تارة أخرى، حيث نمّت على الأرض العارية الباردة في الصيف حين كنت أسمع أنفاس الريح بين أوراق الشجر، تارة تهمس، وطوراً توشوش، وتارة تصمت لتصغي إلى تعليقات الجداد التي لا يغمض لها جفن - هناك في داري الواقعة على أعتاب الفردوس. ويؤكدون أن بيتي لم يعد موجوداً، ولا الأشجار التي كانت تحوطه. لقد ذهب مثل مجرى المياه التي كانت تأتيه في فصل الشتاء، وتروي عطشه في قيظ الصيف المبارك.

وسيسمحون لي بالعودة إلى كل ما كفّ عن الوجود وما حُرمت منه - إلى هذا كله وأكثر وبشرط آخر إضافي: أن أحمل خزان المياه بالمقلوب، وأن أسمّي الأشياء بغير أسمائها، وأن أقرّ بشرعية ما هو غير شرعي، وأن أتعامل مع ما كان غير أخلاقي بالأمس على أنه ذروة الأخلاق اليوم، وأن أقبل اليد التي سرقت، والفم الذي لا يعرف قول الحقيقة، وأن أدع وجودي يقع في اللاوجود، وأن أخرج من هذا المنفى الذي رموني فيه إلى المنفى الذي صنعه حديثاً ويسمونه "العودة".

في منفاي الأول الذي فرضوه عليّ كنت أشبه بنبته اقتلعت عنوة من جذورها وأرسلت إلى المنفى. هناك قد أحاول التكيف مع حياتي الجديدة، لكن هذا التكيف لا يكتمل على الإطلاق. قد أقبّل أغاني الطيور الجديدة، وطعام الناس الجدد، ولعب الأطفال، تلك المخلوقات التي أنعم بها علينا، لكن في هذا المنفى، أفتقد الطيور التي عاشت فقط حيث كان من الطبيعي لها أن تعيش، أفتقد الطعام والشراب قبل منفاي؛ الفلافل والحمص وما شابه، والمياه الممزوجة بطعم الأرض ورائحتها.

في منفاي أسمع أصواتاً وأنغاماً قد تجذب انتباهي، لا بل تستحوذ عليه، لكنها ليست دندنة العود ولا أنغام الشبابة ولا الناي أو الربابة. أعرف كلام الأطفال كما لو أنه كلامي، ومع ذلك فهو ليس كذلك؛ إنه مختلف تماماً عن الكلام الذي عرفته قبل منفاي. أحب الأطفال الجدد، أضحك معهم، وأتعلم كثيراً من كلامهم وأغانيتهم، وأستمع إلى قصصهم وأخبرهم بعضاً من قصصي، وأسير معهم الطريق كله، من النهاية نزولاً إلى البداية... لكن عند الجذع لا تتطابق جذورهم مع جذوري، فنفترق أنا والأطفال. كما أنني لا ألقى قبولاً تاماً لدى الكبار في هذا المنفى - أجنبي، غريب، مثير للشبهة، مختلف، صعب الفهم! وبالتالي فإن النتيجة هي الرفض، الصريح أو الضمني.

وما هذا سوى ظاهر الأمر. فهل أعود بعد ذلك إلى المنفى الثاني المقترح كما وصفته لكم؟ فقط في الخيال. ها أنا قد وصلت على أجنحة مترددة، على أجنحة مُتخيلة! وسأوجد حتى إن لم يُسمح لي بالوجود؛ سأحلم بأنني سأفعل ذلك، بأنني سأبدأ كل شيء من جديد - سأحفر آباري وأعيد بناء داري وأعيد زرع شجرتي لأن الكبار هم آباء الصغار، وكلهم، على الرغم من قوة الإنكار، ومن التحويرات، ومن المنشار المتوحش، سيواصلون التكاثر والازدهار. آه، لكن ليس من دون إغفال إقامة الاعتبار الذي لا بد منه للمبدأ الذي يبرره الإنسان، والمبدأ الذي تشرّعه الطبيعة. قوانين البشر سريعة الزوال وليست بالضرورة مُلزّمة. وكثير

منها، كما رأيتم، متحيز وجائر وقاسٍ. قوانين الطبيعة تتفوق على قوانين البشر، فهي أكثر ديمومة، وأعدل في نهاية المطاف. حضر المتطفلون وسنّوا قوانينهم المخالفة للطبيعة والمنافية للعدالة، والتي اكتسبت شرعية بمرور الوقت. ونشأ أطفالهم وانتموا مثلما كنت أنتمي قبل أن أنفي، ومثل النباتات مدوا جذورهم، ونسوا الظلم الذي ارتكبه أجدادهم، واخترعوا ظلمهم وأخطاءهم كأنهم يتسترون على ظلم أسلافهم وجورهم. تأملوا فقط إصرارهم على حماية الخطأ والدفاع عنه، والذي يُظهرون من خلاله الخطأ على أنه صواب. لا! لن أعود من منفى الأول إلى منفى ثانٍ. سأعود إلى العيش معهم فقط إذا لم ينف أي منا الآخر، إذا تمكنا جميعنا من تأكيد هوياتنا المتنوعة، وضمننا المساواة الكاملة للجميع. إذ إنه فقط من خلال مثل هذا الوئام يمكن لأناس مختلفين لديهم تاريخ مختلف وأهداف مختلفة أن يتقربوا من بعضهم من دون خوف أو شبهة، وأن يذوب كل منهم في الآخر، وأن يخلقوا في داخلك إنساناً جديداً. هل هذا أمر يصعب تقبله وتحقيقه؟ نعم. المثاليات صعبة وخادعة في أكثر الأحيان وحتى ضارة، والأمثل بالنسبة إليّ اليوم هو استرجاع كل ما أخذ مني - لكن فقط عبر ارتكاب ظلم جديد. إنها مثالية تديم دائرة قائمة على الخطأ. هنا بالتالي، فإن الواقع القائم على المنطق والعقل يتفوق على ما جاء في هذا الشعر المأثور: "الأنغام التي نسمعها حلوة، ولكن تلك التي لم نسمعها أحلى". ■

من منشورات مؤسسة الدراسات الفلسطينية

(قضايا استراتيجية / وجهات نظر إسرائيلية ٥)

استراتيجيا الجيش الإسرائيلي

في ضوء المتغيرات الإقليمية

والتهديدات المستجدة

إعداد وتحرير: أحمد خليفة

٢١٧ صفحة ٦ دولارات